بحث بعنوان: "أثر السياق في تحديد دلالة اللفظ ودلالة العلاقات التركيبية في آيات الجنة والنعيم"

إعداد الباحث

محمود أحمد عبد النبي عبد الجواد

معيد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة السويس

أثر السياق في تحديد دلالة اللفظ ودلالة العلاقات التركيبية في آيات الجنة والنعيم

الملخص:

يتناول البحث مفهوم السياق وأنماطه (اللغوي وغير اللغوي)، وأثر السياق في الكشف عن الدلالات القرآنية في آيات الجنة والنعيم، فقد يعمد القرآن إلى كلمة في موضع ويستعمل غيرها في موضع آخر مشابه له كلفظتي (سَابِقُواْ، وسَارِعُواْ)، أو قوله تعالى في أكثر مواضع وصف الجنة: " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " وجاء في ثلاثة مواضع فقط قوله تعالى: " جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتَهَم ٱلۡأَنۡهَٰرُ " فلماذا التغاير بين الضميرين في (تحتها وتحتهم)؟

هنا يأتي دور السياق ليبين الدلالات والعلاقات التركيبية بين تلك المفردات للكشف عن المعاني المصاحبة لها، كذلك السياق الصوتي وأثره في الكشف عن دلالة الكلمة.

الكلمات المفتاحية:

(السياق– دلالة اللفظ– الجنة– النعيم)

Summary:

The research deals with the concept of context and its patterns (linguistic and non-linguistic), and the effect of context in revealing the Quranic connotations in the verses of Paradise and bliss. The Quran may use a word in one place and use another in another similar place, such as the words (سَابِقُواْ، وسَارِعُواْ), or the Almighty's saying in most places describing Paradise: " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " and in only three places it says: " جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتَهَم ٱلۡأَنۡهَٰرُ " so why the difference between the two pronouns in (under it and under them)? Here comes the role of context to show the connotations and syntactic

relationships between those words to reveal the meanings accompanying them.

key words:

(context - Meaning of the word - Paradise – bliss)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شاء، سبحانه رب الأرض والسماء.

وأصلى وأسلم على نبينا الهادى الأمين رحمة الله للعالمين، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد :

فالقرآن هو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين سيدنا محمد المنقولُ إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته، ولقد تعهد الله بحفظه كما قال فى سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

ولقد أمرنا الله تعالى بالتدبر فى القرآن العظيم كما قال فى سورة النساء: "أفلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢" (النساء: ٨٢)

إنّ للبيان القرآني ميزة عن البيان البشري، وله سلطان عجيب على القلوب ليس لكلام آخر، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، فالقرآن يؤثر بتلاوته المجردة في الذين لا يعرفون من العربية حرفاً، فما بالنا نحن أهل اللغة!

وعليه فقد عني العلماء منذ القرون الأولى بالتفسير عناية عامة، حيث يبين شيخ الإسلام ابن تيمية سبب حاجة الناس إلى تفسير كتاب الله تعالى بما "قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء، فضلا عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ، وتارة

لاشتباه المعنى بغيره، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارة لعدم التدبر التام، وتارة لغير ذلك من الأسباب"[١]

لذلك عنيت أن يكون السياق هو محور البحث للكشف عما قد يشكل معرفته، فقد تتبين الآية من خلال الزمان التي نزلت فيه أو مكان نزولها (هل هي مكية أم مدنية؟) ونزلت في من؟ والموقف الذي نزلت فيه، ومن المخاطبون؟ وما الرسالة الموجهة لهم؟

وقد احتوى البحث على ثلاثة مطالب، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع:

المطلب الأول: التعريف بالسياق وأنماطه

المطلب الثاني: دلالة اللفظ وملاءمة السياق في آيات الجنة والنعيم

المطلب الثالث: السياق الصوتي في آيات الجنة والنعيم وأثره في دلالة المعنى

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ثم المصادر والمراجع.

المطلب الأول: التعريف بالسياق وأنماطه

السياق لغة: مادة سوق، وفي لسان العرب سوق:السوق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسواق، شدد للمبالغة، وقوله تعالى : " وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ "؛ قيل في التفسير :سائق يسوقها إلى محشرها، وشهيد يشهد عليها بعملها، وقيل :الشهيد هو عملها نفسه، وأساقها واستاقها فانساقت.[٢]

وفي المعجم الوسيط: " (سوق) سوقا عظمت ساقه وطالت وحسنت مع غلظ فهو أسوق وهي سوقاء (ج) سوق.[٣]

(تساوقت) الماشية ونحوها تتابعت وتزاحمت في السير والشيئان تسايرا أو تقارنا والقوم تفاخروا وتباروا في السوق.[٤]

ونلاحظ مما سبق أن السياق يدل على النظم والتتابع والسير بانتظام، ويوضح المفهوم السابق المعنى الاصطلاحي كما سيأتي.

السياق اصطلاحًا:

يعتبر السياق من المصطلحات عصية التحديد الدقيق؛ فقلما نجد له تعريفًا محددًا، ولكنه عند المتقدمين يراد به الظروف والمواقف التي يصدر فيها الكلام ومقصود المخاطِب من خطابه.

أما عند المعاصرين فهو بناء نصي كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، ودائمًا ما يكون السياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط، بحيث يلقي الضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها.(٥)

ويعد (فيرث) رائدًا هذا الاتجاه الذي تبلور فيما عرف باسم النظرية السياقية (contextual theory)؛ إذ أكد في نظريته أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي: وضعها في سياقات مختلفة، فالمعنى عنده يفسر بوصفه وظيفة في السياق؛ أي: يتحدد معنى الكلمة وفق السياقات التي ترد فيها، وبذلك تعد نظرية السياق واحدة من نتائج البحث الدلالي التي تعد خطوة مهمة على طريق المنهج التحليلي للخطاب، وقد عد (ستيفن أولمان) النظرية السياقية التي ساقها (فيرث) – إذا طبقت بحكمة – حجر الأساس في علم المعنى.(٦)

<u>أنماط السياق:</u>

يقسم أصحاب نظرية السياق (السياق) إلى أربعة أنماط:

النمط الأول: السياق اللغوي:

هو نتاج استخدام اللفظة داخل جملتها عند تسييقها مع ألفاظ أخرى فتكتسب معنى محددًا بخلاف معناها المعجمي؛ لأن المعنى المعجمي متعدد، لكن السياق اللغوي معنى محدد له دلالة واضحة لا تحتمل التعدد والتنوع.(٧)

فمثلا عندما ترد كلمة (يد) في سياقات لغوية متعدِّدة يتبين ما تحمله من معان مختلفة باختلاف كلِّ سياق ترد فيه. إنَّ كلَّ سياقٍ آتٍ ترد فيه كلمة (يد) يقدِّم معنىً واحدًا تتجه إليه الأفهام وتترك ما سواه، فلا يقع أيّ اشتراك في السياق، فقولنا:

يدي تؤلمني : فهنا اليد هي عضو من الجسد.

وله علي يد: أي فضل.

وهم يدٌ على غيرهم: أي مجتمعون.

وهو طويل اليد: أي سخي كريم.

ومن الأمثلة السابقة يتضح أن كلمة (يد) اختلف معناها حسب تسيقها في جمل مختلفة، فليس لها معنى متنوعًا في الجملة الواحدة لأن السياق حدد معناها.

النمط الثاني: السياق العاطفي:

هو استعمال الكلمة بحسب دلالتها العاطفية التي تحولها من العموم إلى الخصوص، فيحدد درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً، ويؤثر في هذا السياق مراعاة الحالة الصوتية والإشارات المصاحبة للكلام التي تبرز المعاني الانفعالية.

والسياق العاطفي هو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة، هل هي مستعملة استعمالا موضوعيًا، أم مستعملة استعمالا عاطفيًا، يقول ماييه في هذا الصدد: " واللفظة بعد لا تحمل معنى عقليًا فحسب بل تحمل أيضا في الغالب لونا من ألوان الإحساس؛ فكلمة جُنينة ليست فقط حديقة صغيرة فحسب، بل هي حديقة صغيرة لها في النفس حنو، وكلمة قصر ليست فقط منزلا واسعًا فحسب، بل يُضاف إلى ذلك إعجاب وإحساس تشعر به نحو مقر الأمراء.[٨]

النمط الثالث: سياق الموقف:

هو السياق الذي يراقب العلاقات المكانية والزمانية التي يحدث فيها الكلام.

ويرى فيرث أن سياق الموقف مصطلح واسع لا يقتصر على السياقات اللغوية، بل هو حقل من العلاقات، علاقات بين أشخاص يقومون بأدوارهم في المجتمع مستعملين في ذلك لغات مختلفة، ومرتبطين بحوادث وأشياء متنوعة لها اتصال وثيق بالمقولة المستعملة، وتأثير الحدث اللغوي.(٩)

وعلى هذا فيمكن فهم سياق الموقف كما أشار إليه العرب القامى في قولهم: " لكل مقام مقال ".

النمط الرابع: السياق الثقافي:

هو الذي يهتم بالمحيط الثقافي والاجتماعي الذي تقال فيه الكلمة، وتؤثر فيه الطبقات الاجتماعية، فالفلاح يستخدم كلمة (جذر) غير استخدام اللغوي لها، كذلك أيضا استعمال كلمة (الصرف) تختلف عند النحوي وعند التاجر وعند الاقتصادي وهكذا، فالسياق الثقافي له دور كبير في تحديد الدلالة المقصودة من الكلمة أو المفردة التي تستخدم استخدامًا عامًا.

المطلب الثاني: دلالة اللفظ وملاءمة السياق في آيات الجنة والنعيم

نجد أحيانًا أن القرآن الكريم يغاير بين كلماته في مواضع متشابهة، لدواعٍ دلالية يتطلبها السياق الذي ترد فيه، ويمتزج بها، فالسياق يؤسس للدلالة، ويكشف عنها، فقد يعمد القرآن إلى تغاير المفردات؛ فيستعمل مفردة في موضع، ويستعمل غيرها في موضع آخر مشابه له، بل قد يأتي في الموضوع الواحد بمفردة في موطن، ويأتي بغيرها في موطن آخر، والقرآن حين يعمد إلى هذه المغايرة أو التعاور، فإنما يعمد إليها لأهداف دلالية يقتضيها السياق المصاحب لها، لأنه هو الذي يفضي إلى استخدام مفردة بعينها دون غيرها؛ لوجود علاقة ما تربط هذه المفردة، وذلك السياق الملازم لها، فالمغايرة هي وضع الكلام موضعه الذي يليق به، ويناسبه؛ ليكتسب دلائل من خلال التفاعل بين السابق واللاحق في إطار السياق.(١٠)

- ونذكر من ذلك في سورتي (آل عمران والحديد) جاء التوجيه من الله لعباده بالأمر بـ " وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ " في سورة آل عمران، والأمر بـ " سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ " في سورة الحديد. ثم جاء وصف الجنة في سورة آل عمران بقوله تعالى : " وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ "، وفي سورة الحديد :" وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ "، ونلاحظ التشابه بين الموضعين، ولكن لماذا اختلف وصف الجنة – رغم أن المحتوى القضوي واحد – ولكن جاءت السماوات جمعًا في (آل عمران)، وجاءت بالإفراد في (الحديد)، ولم جاء التشبيه في (آل عمران) محذوف الأداة، وفي سورة (الحديد) جاء بأداة تشبيه؟

كل هذه التساؤلات يجيب عنها سياق الآيات، ونذكر الموضعين أولا:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ١٣٦﴾ (آل عمران)

وقال في سورة الحديد: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١)

فبعد قراءة الموضعين قد نظن أن ثمة تشابهًا بين هذه الآية وآية آل عمران ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ١٣٣ ﴾ وقد يُظن أن هناك تكرارًا بين الآيتين، بيد أننا نجد – بشيء من التأمل – أن وصف الجنة مختلف بين الآيتين، ففي سورة آل عمران وُصفت

الجنة بأن عرضها السماوات والأرض، فجاءت السماوات بصيغة الجمع، أما في سورة الحديد فقد وُصفت بأن عرضها السماء والأرض، فجاءت السماء بصيغة المفرد، وأيضا وُجدت أداة تشبيه وهي الكاف في " وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ " لكن آية آل عمران حُذفت منها أداة التشبيه، وبالنظر إلى سياق الآيتين نجد أن آية آل عمران خُتمت بقوله تعالى " أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ " أما في آية الحديد قال " أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ "، فجمع السماوات والتشبيه المؤكد جاء مع المتقين، أما إفراد السماء والتشبيه المرسل جاء مع المؤمنين، ولا شك أن المؤمنين أقل شأنًا من المتقين، يقول النيسابوري : هاهنا قال أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ولأن هؤلاء أدون حالا من أولئك جعل عرض الجنة هنا أقل فقال وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ فلم يجمع السماء وأدخل حرف التشبيه الدال على أن المشبه أدون حالا من المشبه به. وفي لفظ (سابِقُوا) هاهنا إشارة إلى أن مراتب هؤلاء مختلفة بعضها أسبق من بعض كالمسابقة في الخيل، وفي لفظ (سارِعُوا) هنالك رمز إلى أن كلهم مستوون في القرب أو متقاربون لأن المرتبة العليا واحدة – وهي مرتبة السابقين المقربين – وأنها غاية الرتب الإنسانية فافهم هذه الأسرار فإن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.(١١)

وهنا تتجلى روعة السياق في الكشف عن معاني الآيات ودلالتها.

- **الفرق بين قوله تعالى: " جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ " و " جَنَّٰت تَجْرِى مِن تَحْتَهَم ٱلْأَنْهَٰرُ "**

يُلاحظ في آيات وصف الجنة والنعيم أن معظم الآيات التي أخبرت عن الجنة قال الله تعالى فيها: " جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ " إلا في ثلاثة مواضع جاءت بقوله تعالى: " " جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتَهَم ٱلْأَنْهَٰرُ " في سور (الأعراف – يونس – الكهف)

وبتتبع السياق في الآيات التي جاء فيها قول الله تعالى : " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " تبين أن التركيز في الوصف على الجنات، فقد يقدم الله البشرى للمؤمنين ثم يأتي وصف الجنات لهم تشويقًا وترغيبًا في عمل الخيرات التي تؤهلهم لذلك النعيم، ونذكر من هذا مثلا قوله تعالى في سورة البقرة: " ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة)

فقد جاءت البشرى أولا للمؤمنين، ثم وصف الجنات بقوله تعالى: " تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ " فالحديث هنا عن الجنات، ويدعم ذلك الضمائر العائدة عليها استكمالا للوصف في قوله: " رُزِقُواْ مِنۡهَا "، " وَلَهُمۡ فِيهَآ "، " وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ " فنلاحظ تكرار هاء الغيبة العائدة على الجنات لتركيز الوصف عليها.

لكن قوله تعالى : " جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " لم يأتِ إلا في ثلاثة مواضع في سياق آيات الجنة والنعيم نذكرهم في الآتي:

١- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢۝ ونَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣۝ (الأعراف)

٢- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩۝ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠۝ (يونس)

٣- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١ۚ (الكهف)

نلاحظ في المواضع الثلاثة أن الخطاب من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، والسور الثلاثة مكية؛ حيث كان المؤمنون حديثي عهدٍ بالإسلام، فاحتاج الخطاب أن يشتمل على تخصيص لهم بالجزاء والثواب؛ تحفيزًا وترغيبًا لهم في الإيمان والعمل الصالح؛ فجاء قوله تعالى : " " جَنَّٰتِ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " بدلا من " جَنَّٰتُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ "؛ بتخصيص جريان الأنهار لهم، فالتركيز في الخطاب على الذين آمنوا والدليل على ذلك الالتفات بالخطاب إليهم في سورتي الأعراف ويونس، ففي سورة الأعراف قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا، فقد حمدوا الله على نعمة الإيمان والنعيم المصاحب له، وفي سورة يونس نجد أنهم حمدوا الله أيضا في قوله تعالى: " وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ "، أما في سورة الكهف فاشتملت على ضمائر تفيد التركيز على المؤمنين أنفسهم بعد تخصيص جريان الأنهار لهم، ونجد ذلك في (يحلون – ويلبسون – متكئين) فواو الجماعة تعود على المؤمنين كذلك الضمير المستتر بعد متكئين، كل ذلك يدل على التركيز في الخطاب على المؤمنين، فذكرهم أعطاهم الأمل والثقة والرغبة في زيادة إيمانهم والعمل الصالح.

ونلاحظ تأكيدًا لمكوثهم في الجنة أبدًا، لم يقل الله تعالى عطفًا على الأفعال المضارعة في سورة الكهف (يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق يتكئون فيها على الأرائك) ولكن قال تعالى: " مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ " فعدل عن العطف بالفعل المضارع يتكئون إلى الحال " مُّتَّكِـِٔينَ " بصيغة اسم الفاعل للثبوت والدوام.

ويؤكد ذلك الأفعال الإنجازية في المواضع الثلاثة التي تنوعت بين الإخبار والإفصاح والوعد للمؤمنين، ففي سورة (الأعراف) في قوله تعالى: " وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ۖ " اشتمل على أفعال إنجازية متمثلة في الإخبار عن تملك المؤمنين للجنة بالخبر الجملة الاسمية في قوله تعالى: " أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ " ونلاحظ القصر بتعريف ركني الجملة (أولئك – وأصحاب الجنة) لتخصيص الجنة لهم، ثم دعم ذلك القصرُ أيضا بعدها في قوله: " هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ " فُقدم شبه الجملة" فيها " لتخصيص الجنة لهم وأُخِّر الخبر " خَٰلِدُونَ " للتشويق للنعيم المنتظر بالخلود الدائم في تلك الجنة.

ثم جاء في الآية التالية في قوله تعالى: " ونَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣ۖ " عدد من الأفعال الإنجازية كالوعد بالأخوة الدائمة بين المؤمنين في قوله تعالى: " ونَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ " فهم دائمًا إخوة متحابون، وجاءت ما لإفادة عموم التنقية لصدور المؤمنين فلم يتبق غل في صدورهم كما قد يحدث في الدنيا، فكما قلنا من قبل أن الآيات نزلت في مكة حيث العصبية القبلية والجاهلية المتشددة، فوعد الله المؤمنين بإزالة ذلك الحقد والغل، ثم جاء الوعد بتخصيص الجنات وجريان أنهارها لهم في قوله " تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ " وأكد هذا التخصيص القصر بتقديم شبه الجملة " مِن تَحۡتِهِمُ " على الفاعل " ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ " ليس في هذا الموضع فقط بل جاء هذا القصر في سورتي (يونس والكهف) أيضا.

- **الفرق بين قوله تعالى: " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " و " جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ "**

جاء قول الله تعالى " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " بحرف الجر " من " في القرآن الكريم سبع وعشرين مرة، لكن قوله تعالى: " جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " بدون حرف الجر " من " لم يأتِ إلا مرة واحدة في سورة التوبة في قوله تعالى: " ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ ﴾

وبتتبع السياق نجد أن المتكلم في المواضع جميعها هو الله سبحانه وتعالى، لكن المخاطبون اختلفوا، ففي الموضع السابق من سورة التوبة، المخاطبون هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين تبعوهم بإحسان ولم يشمل الخطاب الأنبياء – عليهم السلام –، أي كل مؤمن اتبع ما كان عليه المهاجرون والأنصار وهو محسن إلى يوم القيامة، لكن في قوله تعالى: " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " الخطاب في المواضع السبعة والعشرين شمل المؤمنين جميعًا بالأنبياء – عليهم السلام؛ لأن الخطاب إما أن يكون موجهًا للمؤمنين أو المتقين والأنبياء منهم بلا شك.

وذلك لأن قوله تعالى: " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ " الذي ذُكر في معظم المواضع هو الأفضل؛ لأن قوله: " تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا " أفاد أن مصدر الماء تحتها مباشرة فيستمتع أهل الجنة بمشاهدة منظر منبع الماء وفورانه؛ وذلك لأن حرف الجر من أفاد ابتداء الغاية، لكن قوله: " تَجۡرِي تَحۡتَهَا " أفاد أن الأنهار تمر تحتها وليس شرطًا أن يكون المصدر من تحت الجنات مباشرة كموضع سورة التوبة.

وهنا نقول إن آيات الجنة والنعيم كلها التي جاءت فيها " جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ " كان تعظيمًا وتشريفًا للأنبياء، وآية التوبة " جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ " ليست نقصانًا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار – حاشا لله – فهم – لا

شك – أفضل الناس بعد الرسل والأنبياء، وهم أيضًا من ضمن المؤمنين الذين يدخلون الجنة مع الأنبياء، فالله تعالى يقول في سورة النساء: " وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ (النساء)

ولا ريب أن السابقين والأولين من المهاجرين والأنصار كانوا أهلاً لطاعة الله ورسوله؛ فيستحقون تلك المكانة العليا.

المطلب الثالث: السياق الصوتي في آيات الجنة والنعيم وأثره في دلالة المعنى.

لا شك أن للأنماط الصوتية في آي القرآن أثرًا كبيرا في فهم المعنى والكشف عنه، فالقرآن الكريم لا يختار إلا المفردات التي توحي بمعنى الكلمة ودلالتها للمتأملين فيه بدقة.

على أن جمالية التصوير بالصوت في المفردة القرآنية لا تراعي تجسيم المعاني فحسب، وإنما تراعي أيضًا تمام المراعاة ما للفظ من خصائص صوتية تتلاءم مع السياق الوارد فيه؛ إذ يفضي السياق إلى استخدام لفظة بتشكيل صوتي معين دون غيرها؛ لوجود علاقة وثيقة ما بين هذه اللفظة وذلك السياق، فإذا كان السياق للتفخيم أو للتهويل كان في ألفاظه من المقاطع الصوتية ما يدل على ذلك، كزيادة صوت أو تفخيمه، أو كان يدل على التمهل والصبر والتباطؤ كانت الألفاظ تتوالى فيها السواكن والحركات إلى آخر ذلك من صفات صوتية تشيع في النفس إحساسًا عاطفيًا معينًا يتحقق من تداخل الكلمات صوتًا وإحساسًا؛ الأمر الذي يدل على الوشائج القوية القائمة بين الصوت والمعنى في النفس.(١٢)

لذلك يجب علينا دراسة اللفظة جيدًا من حيث التفخيم والترقيق، والجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والتكرار، وهكذا.

ويظهر ذلك في آيات وصف الجنة والنعيم نذكر منها:

- لفظة " مُدۡهَآمَّتَانِ " في سورة الرحمن في قوله تعالى: " وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ۚ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٣ۚ مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤ۚ " (الرحمن)

عند تأمل هذه اللفظة في سياقها نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكرها وصفًا للجنتين، قال أبو عبيدة والزجاج: من خضرتهما قد اسودتا من الري، وكل ما علاه السواد ريًا فهو مدهم، وقال مجاهد : مسودتان، والدهمة في اللغة: السواد.(١٣)

ولا شك أن التشديد على الميم والمد الكلمي اللازم المثقل يُوحي بشدة الخضرة التي أدت لذلك السواد، وقد تكونت اللفظة من خمسة مقاطع (مدْ – هامْ – مَ – تا – نِ) وطول المقطع مع المد الذي جاء مرتين يوحي بكثرة الخضرة في الجنة وتعددها مع ارتفاع أشجارها ونخيلها مما تستلذ به الأعين وتحبه.

- لفظة " نَضَّاخَتَانِ " جاءت في نفس السياق في وصف الجنتين المشار إليهما في الموضع السابق في قوله تعالى: " فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦ۚ " (الرحمن)

والمعنى: أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين.

قال أهل اللغة: والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة. قال الحسن، ومجاهد: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر.

وقال سعيد بن جبير: إنها تنضخ بأنواع الفواكه والماء.(١٤)

وقال الماوردي: ﴿فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدهما: ممتلئتان لا تنقطعان، قاله الضحاك.

الثاني: جاريتان، قاله الفراء.

الثالث: فوارتان، وذكر في الجنتين الأوليين عينين تجريان، وذكر في الأخريين عينين نضاختين، والجري أكثر من النضخ.

وبماذا هما نضاختان؟ فيه أربعة أوجه:

أحدها: بالماء، قاله ابن عباس.

الثاني: بالمسك والعنبر، قاله أنس.

الثالث: بالخير والبركة، قاله الحسن، والكلبي.

الرابع: بأنواع الفاكهة، قاله سعيد بن جبير.(١٥)

بعد أقوال العلماء يتضح لنا أن نضخ الماء أقوى من نضح الماء، ودل على ذلك حرف الخاء المفخم، وأشد ما يكون تفخيمًا عندما يكون مفتوحًا كما في الآية، كما أن حرف الضاد المفخم يوحي بكثرة الماء وشدة فورانه.

كما تتكون لفظة " نضاختان " من خمسة مقاطع كلفظة " مدهامتان "، (نضْ – ضا – خَ –تا – نِ) وهذا التعدد يُوحي بكثرة الماء وشدته، فالإنسان في الدنيا يستمتع بمنظر الخضرة في الدنيا، والنوافير التي صنعها البشر فما بالنا إن كان هذا المنظر البديع من صنع الله تعالى في الجنات.

وجدير بالذكر أن سورة الرحمن اشتملت على أربع جنات، فإذا كان هذا الوصف الدقيق الممتع في الجنتين الدنيين فكيف الحال في الجنتين العليين؟!

- لفظة " متكئين "

جاءت لفظة " مُتَّكِئِينَ " سبع مرات في مواضع ذكر النعيم منصوبة وجاءت مرة واحدة مرفوعة في سورة (يس) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ٥٦ ﴾ (يس)

أما المواضع السبعة المنصوبة الأخرى جاءت (مُتَّكِئِينَ) في سور (الكهف ٣١، ص ٥١، الرحمن – في موضعين ٥٤ و ٧٦– ، الواقعة ١٦، الإنسان ١٣، الطور ٢٠)

وهي لفظة يظهر من التجانس الصوتي لها الراحة التي سيكون عليها المؤمنون في الجنة، فالمد العارض للسكون في نهايتها يعطيك عند الوقف عليها حرية في المد بحسب حالتك النفسية، فلك أن تمدها مدا لازما – ستة حركات – وتستشعر مدى الراحة في الجنة، وأيضا الانتقال من صوت الهمزة – وهو حرف حلقي قال عنه العرب عند النطق به يشبه التهوع – لصوت الياء المدية الرقيقة يبين مدى روعة الانتقال من الدنيا الشديدة الذي يعيشها الإنسان في كبد إلى دار الراحة والنعيم في الجنة.

وهي لفظة تدل على الدعة والراحة لأصحاب الجنة، وفيها إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة، فإن القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم. وأما المتكئ فلا يتكئ إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لا يقدر على الاتكاء، وإنما يكون مضطجعا أو مستلقيا.(١٦)

وجدير بالذكر أن الكلمة لم يذكر فيها أي حرف مفخم، فحروفها رقيقة تنساب على الألسن؛ لنتخيل مدى الدعة والراحة التي سيكون عليها حال المؤمنين.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١. أهمية الدور الذي يلعبه السياق في الكشف عن دلالات الكلمات، فلا نكتفي بالتفسير الظاهري فقط دون الرجوع للمتكلم والمخاطب والرسالة الموجهة والموقف الذي يدور فيه الخطاب ومعرفة أسباب النزول.

٢. الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، فكل لفظة تؤدي المعنى المراد في موضعها، ولا يصح وضع لفظة أخرى ترادفها مكانها.

٣. أن القرآن الكريم يُراعي حال المخاطب، فكما لاحظنا اختلاف الخطاب للمؤمنين في مكة في بداية الدعوة عن خطابهم في المدينة.

الهوامش:

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٤٠٠/١٧)

٢) لسان العرب، ابن منظور، (١٦٦/١٠)

٣) المعجم الوسيط، (٤٦٤/١)

٤) المرجع السابق، (٤٦٥/١٧)

٥) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، ص٢٠١

٦) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، عزة محمد جدوع ، ص ١٣٦

٧) يُنظر: علم الدلالة، عمر أحمد مختار، ص: ٦٩

٨) يُنظر: معجم المصطلحات الأدبية، مرجع سابق ، ص: ٧٠، ٧١

٩) الأصول، تمام حسان، ص: ٣٣

١٠) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مرجع سابق ، ص: ٧٨، ٧٩

١١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ص: ٢٥٨

١٢) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مرجع سابق ، ص: ٨٣، ٨٤

١٣) تفسير فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني (١٨٨/٥)

١٤) المرجع السابق (١٨٩/٥)

١٥) النكت والعيون، الماوردي، (٤٤٠/٥)

١٦) مفاتيح الغيب، الرازي، (٢٢٥/٢٦)

قائمة المصادر والمراجع:

١) الأصول، تمام حسان ، دار الثقافة – الدار البيضاء، سنة النشر ٢٠٠٩م

٢) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، عزة محمد جدوع، مكتبة المتنبي للنشر والتوزيع – الدمام السعودية – الطبعة الثالثة، سنة النشر ١٤٤١ هـ-٢٠٢٠م

٣) علم الدلالة، عمر أحمد مختار، عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الخامسة، سنة النشر ١٩٩٨م

٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، سنة النشر١٤١٦هـ – ١٩٩٦م

٥) فتح القدير، الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني، دار الوفاء – القاهرة، سنة النشر ٢٠٠٨م

٦) لسان العرب، مد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، سنة النشر ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م

٧) مجموع الفتاوى، ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة النشر ١٤١٦هـ –١٩٩٥م

٨) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي ، دار شرقيات للنشر، باب اللوق – مصر، سنة النشر ٢٠٠٠ م

٩) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة – الطبعة الثانية، سنة النشر ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م

١٠) مفاتيح الغيب للرازي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

١١) تفسير النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود، دار الكاب العلمية، بيروت.